

في تلك الليلة أطبقت الميليشيات المسلحة على وسط بيروت بعنف شديد لا يخلو من سادية، فدكت عددًا كبيرًا من المنشآت التجارية، وأشعلت حرائق اجتاحت الأسواق، فانهار فندق كائن في ساحة الشهداء، وأودى بحياة سبعة وثلاثين شخصًا... بعد تلك الليلة المشؤومة أصبحت العاصمة اللبنانية شطرين اثنين! بتدميرها وسط العاصمة، ألغت الميليشيات ما كان يشكل ملتقى اللبنانيين بامتياز. فهنا كان اختلاطهم اليومي، سعيًا وراء رزقهم ومصالحهم المتشابكة، يخفف من غلواء عصبيتهم الطائفية، إذ يتيح لكل منهم فرصة لقاء الآخر المختلف، والتعرف إليه عن كثب، الأمر الذي غالبًا ما كان يولد احترامًا متبادلًا. لقد جسّد وسط العاصمة أكثر من أي منطقة أخرى في لبنان، حلاوة العيش اللبناني. فلم يكن ثمة مكان آخر تتجاور فيه عوالم شديدة التنوع، بمثل تلك الوداعة!

بعد الفراغ من شواغل الحياة اليومية، كانت المقاهي المزروعة عند فقس الموج تتيح لمن يرغب لحظات هدوء على أنفاس الأراكيل. وفيما يلي تلك المقاهي البحرية، تراصفت مطاعم ذات تقاليد عريقة، فاتحة ذراعيها، دوّما تميز، لجمع من يأمون المكان... وهؤلاء، على تنوعهم، يتذوقون أطيب المطبخ الشرقي بشهية بالغة، لا فرق بين أجنبي منهم وبلدي. وفي غير زاوية من تلك الأسواق ارتفعت كنيسة هنا أو مسجد هناك، حيث يستطيع أي إنسان أن ينال قسطًا من التأمل والسلام الداخلي في ظل سرورة أو مئذنة.

في الوسط التجاري القديم لمدينة بيروت، المؤلف من أسواق متشابكة، عاش مسلمون ومسيحيون، جنبًا إلى جانب، على مدى قرون. لقد عاشوا بانسجام لم تطع به الاضطرابات الطائفية التي كانت

تزعزع البلاد بصورة دورية. ذلك أن الاحزاب الطائفية المتشددة لم تتمكن من اختراق تلك الأزقة العتيقة، حيث أناسٌ من كل صنف ولون يندفعون بحمّية وشجاعة بحثًا عن كل شيء... ولا شيء! إنها حلاوة العيش معًا... انها شجاعة العيش معًا!... هنا، أكان في «سوق الصاغة»، أو «سوق الطويلة» (سوق الأقمشة)، أو «سوق الخضار» أو «شارع المصارف»... لا مكان للخصومات التقليدية. كل شيء برسم المساومة والمبادلة، وإن احتمل المباحكات الكلامية المطولة. «ساحة الشهداء»، محطة طرقات حقيقية تصل ما بين أحياء بيروت والمناطق المختلفة، كانت توقّر لُحمة دائمة بين اللبنانيين. وفي «ساحة النجمة» كان البرلمان يستقبل ممثلي جميع الطوائف والمناطق.

حلاوة العيش هذه، وسيولته، إلى قابلية فذة لاستدخال الجديد من دون أن تفقد الذات خصوصيتها، إلى قدرة لا متناهية على احتضان الفروق، إلى رهافة إحساسٍ وصبرٍ جميل... كل ذلك لم تكن ميليشيات الحرب قادرة على احتماله! لقد ضاقت به ذرعًا، وها هي - بعد أن رسمت حدًا فاصلاً بين البيروتين - تندفع لـ«تطهير» مناطقها من كل «جسم غريب»!... هكذا بدأ ليل لبنان الطويل، ومعه بدأت أولى «حروب الهويّات» التي وسمت نهايات القرن العشرين.<sup>(١)</sup>

في هذه المقاطع الرائعة، فكرة ورهافة إحساسٍ وقدرة فائقة على استخلاص الجوهر من ركام الأشياء، لا يكفي سمير فرنجية بالقول «كان جورج نقاش على حق!»، بل يزيد: هذا هو إيماني الذي أشهد له!... ونحن بدورنا نشهد مع المطران يوسف بشارة حين أصرّ في

١. سمير فرنجية، «رحلة إلى أقاصي العنف»، ص ١٩-٢١ (الترجمة العربية).